

حول رعاية الطفل

لقد اتاحت لي فرصة حضور بعض جلسات حلقة (رعاية الطفولة في الاسلام) والتي نظمتها مكتب المستشار الثقافي بديوان سمو رئيس الدولة ومنظمة المؤتمر الاسلامي والاتحاد النسائي وجامعة الامارات العربية، والتي اقيمت في فندق هيلتون ابو ظبي في مطلع الشهر الماضي، بإشراف مدير عام جامعة الامارات...

وقد قدم ممثلو الهيئات المذكورة، كلمات في جلسة الافتتاح كانت بمثابة ورقات عمل، وقد قدم معالي وزير العمل والشؤون الاجتماعية، بعض الاحصائيات التي توضح حجم المشكلة من حيث الكم والكيف، مؤكدا على ضرورة شمولية مفهوم رعاية الطفولة اعتمادا على الاحصائيات الاقليمية والدولية، ومركزا على ضرورة تناول قضايا الطفل بعيدا عن المنظور السياسي، لأن الدول التي ترعى المؤسسات التي تدافع عن حقوق الانسان هي ذاتها التي تشعل الحروب المدمرة التي يكون الأطفال أول ضحاياها العاجزين عن الدفاع عن انفسهم... وقد أشار الى الاحصائيات التي تدل على ان نسبة الأطفال تعادل نصف السكان في بعض مناطق العالم، وأكثر من ربع السكان في منطقة الخليج. وإذا قيست هذه النسبة بالتعداد العام للسكان فإنها تمثل ثمرة حصيلة اغلى ثروة بشرية واعظم عائدا في الدخل القومي على مدى نهاية القرن الحالي...

حلول عاجلة

إن معطيات استقراء حقائق مرحلة ما بعد البترول على مستوى منطقة الخليج، تعطي موضوع رعاية الطفولة اولوية في التناول واسبقية في الاهتمام، ومن المؤسف انه على مستوى الوطن العربي يتجه المؤشر الى الإتجاه المضاد حيث يرتفع معدل الكثافة السكانية وتنخفض الموارد الغذائية والدخل القومي، وعلى نطاق الدول النامية فان اغلبية الأطفال يموتون دون بلوغ العام الأول واذا تجاوزوه، يعانون من مشاكل سوء التغذية والأمراض الوبائية والمستوطنة. واذا تخطوها فيقعون في مستنقع الأمية بارقام فلكية، وإذا خرجوا للحياة واجهوا البطالة والجريمة والانحراف، وهذا مصير أجيال تمر بكل اصناف الحرمان والمعاناة من الطفولة للشيخوخة، وأطفال الأقليات في المجتمعات المتقدمة يقابلون نفس المصير.

ولو رجعنا الى مداوات مؤتمر الطب العربي للأطفال الذي نظمته وزارة الصحة بالامارات الشمالية، نلاحظ بوضوح تكرار المأساة في مشاكل سوء التغذية والتطعيم، وضعف الرعاية الأولية والحد الأدنى من احتياجات الطفل الأساسية في كل مراحل العمر وهي قضايا متشابهة في كل الأقطار المشتركة والتي تعاني من مشاكل التخطيط لرعاية الأمومة والطفولة.

ابعاد جديدة

ان قضايا الطفل واحدة... خارج اعتبارات الجنس واللون واللغة والعقيدة. وهناك قواعد عامة تحكم هذه القضايا وقد قدم الدكتور عز الدين ابراهيم اقتراحين في كلمة الافتتاح، يتلخصان في تكون مجلس اعلى لرعاية الطفولة في العالم الاسلامي، واتحاد نسائي اسلامي عالمي. والواقع ان الاقتراحين ينبعان من ارضية مشتركة هي رعاية الطفل... وفي الحديث « اللهم اني أخرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة»، وهما ينفصلان نظريا في ضرورة التخطيط لكل فئة على حدة في تحديد الأولويات ومصادر التمويل

ويتكاملان عمليا في شمولية التصدي لقضية واحدة هي مشاكل الطفولة والأمومة. والمؤسسات التي ترعى مشاكل الطرفين، لا بد ان تكون ذات ابعاد مشتركة الا ان التمييز في طرح قضية الطفل في العالم الإسلامي او المسيحي هي انعكاس لواقع هذه المجتمعات، بحيث يكون العلاج نابعا من خصوصية المشكلات المميزة لكل مجتمع دون غيره، آخذة في الاعتبار الاطار العام الذي يهتم بالطفل... كانسان...

ان معظم اطفال العالم الاسلامي والدول النامية، يعيشون في مناخ غير صحي يفتقر الى كثير من ضروريات صحة البيئة والمجتمع التي وصل اهتمام الدول المتقدمة بها، مرحلة الاساطير العلمية، كالرجل الخارق ورحلات الفضاء... مواقف مثيرة للاحباط في نفسية الطفل في العالم العربي والاسلامي.

مؤسسات الأطفال

اننا ما زلنا نعاني من أزمة حقيقية في رعاية الطفل... رغم ان الأطفال يمثلون اكبر شريحة في المجتمع... والعملية الوحيدة في مستقبل سوق التعامل الحر... والعنصر الأساسي في خدمة قضايا التنمية خاصة وان عائد المواد الخام يسجل هبوطا ملحوظا في السنوات الأخيرة...

ان دول العالم الثالث اصبحت دول مؤسسات تهدر جهودها في التخطيط القطاعي، ولا يقع الطفل في اولويات هذا التخطيط. ومظاهر هذه المؤسسات يتمثل في المهرجانات الموسمية، كالعام الدولي للطفل... والعام الدولي للمعوقين... والعام الدولي للأمومة، وهي من باب (الذكري تنفع المؤمنين) ويجب اعادة النظر في دور هذه المؤسسات بحيث يكون للطفل مؤسسات خاصة — اذا لزم الأمر — على نسق وزارات التربية والشباب والرياضة، تعنى بطفل ما قبل المدرسة... وان يخرج دور المؤسسات والهيئات العالمية كالیونسكو والیونيسيف والمنظمة العربية، من اطار المؤتمرات والتوصيات الى متابعة التنفيذ على المستوى الأقليمي والمحلي، حيث لا تزال هذه القرارات تخضع لسياسة واهتمام كل دولة

على حدة... فالطفل في السنوات الأولى يكون المقومات الأساسية للرجل... العادات... والضمير الانساني... وعلامات النضج الخلقي والديني والعقلي وحين يصل الى المدرسة يكون قد وصل برصيد هائل من مشاكل ما قبل المدرسة ويكون دور التربية في محاولات اصلاح السلوك المعوج، او تقويم العادات المكتسبة، حتى اذا وصل دائرة اهتمام وزارة الشباب والرياضة اصبحت اهتماماته منصبية في قوالب جاهزة...

لذلك، فإن وجود مؤسسات خاصة بالطفل في كل دولة تضع في اعتبارها التخطيط الصحي في التغذية والتطعيم ومراكز رعاية الطفولة والأمومة، ودور التوجيه والرعاية الأولية... والتخطيط الاقتصادي بحيث يصبح الطفل الرقم الأول في ميزانية الأسرة... والتخطيط الاجتماعي الذي يوطد اسس التنشئة النفسية السليمة ومتطلبات النمو في كل مراحل... والتخطيط الثقافي الذي يعنى بثقافة الطفل... مكتبة الطفل... ملاعب الطفل... تنمية المهارات والقدرات، من خلال توفير أماكن خاصة للأطفال... وصلات عرض... وحدائق متخصصة، لا تقتصر على توفير المنتفس الاجتماعي، وإنما تخدم هدف دور الرعاية والحضانة... والمناخ النفسي لنمو شخصية الطفل... حيث لا يستقيم الظل والعود أعوج.

القضايا المعاصرة

ان متطلبات العصر الحديث قد فرضت على المرأة الخروج الى العمل... وخرجت بالرجل بعيدا عن دائرة الاسرة لأوقات طويلة وفرضت على بقية الأطفال سرعة النضج الاجتماعي والاعتماد على النفس بحثا عن العلم او العمل، وبقي الطفل في المنزل آخر افراد الكتيبة المحاربة من اجل الرزق، وبقدر ما توفرت طرق الخروج تعذرت دروب العودة.

وقد فرض هذا الواقع المعاصر التزامات جديدة على الطفل... مثل الاعتماد على النفس قبل اكتمال النضج... وضرورة التكيف مع البيئة دون توفير الضمانات، فأصبح طفل اليوم ليس كطفل الأمس شكلا وموضوعا...

لقد قال سيدنا علي كرم الله وجهه (الناس بزمانهم اشبه منه بأبائهم)
ولعل حلقة رعاية الطفولة في الاسلام قد وجدت في هذا المعنى مدخلا
جديدا لقضايا قديمة يجب اعادة صياغة مفاهيمها بصورة جديدة.

وقال سقراط (لا تكرهوا ابناءكم على آثاركم فهم مخلوقون لزمان غير
زمانكم) وقد وضح من ابحاث ومداولات الحلقة ان مشاكل العصر
الحديث في الإنجاب والنسل والتنشئة والزواج والحرية والتفاوت النوعي
والموضوعي بين قطر وآخر، هي معطيات قديمة تحتاج الى التناول
بأسلوب جديد نابع من البيئة الإقليمية في إطار النظرة العالمية... وقديما قيل
(ان النار التي تذيب الذهن هي التي تجعل البيض يتجمد) ومن هذا
المنظور الفلسفي نستطيع ادراك خطورة التعامل بأسلوب القوالب
الجاهزة... في رعاية الطفل... ولنا عودة...